

نظرات في فكر وفلسفة راشد المبارك



أسكن الدكتور راشد المبارك - طيب الله ثراه - كل من عرفهم سويداء قلبه الكبير، وسكن هو أيضاً في قلوبهم، وتربع على عروش وجدانهم، وترسخ في عقولهم: إنساناً باراً، وفيماً نزيهاً، جاداً موضوعياً، رحب الصدر، شفاف النفس، عالماً وأديباً، وشاعراً مجيداً، وصاحب رؤية ناضجة، وفلسفة سامقة، وفكر واقعي، ومنظور ثاقب عن الحياة والكون.

ولاشك أن هذا المنظور قد أثر في طبيعة شخصية الدكتور راشد المبارك الذي أخذ على نفسه عهداً أن يتجرد من الذات، وأن يرتقي فوق المنافع الشخصية، وأن يعيش لغيره، وأن يمنح قلبه للناس كل الناس، وأن يؤثرهم على نفسه، وقد فعل وأحسن الفعل. ووفاءً منه لهذا العهد تجده لا يترك صديقاً إلا يبره ويسأل عنه ويتودد إليه، ولا مريضاً إلا يعوده ويواسيه، ولا مكروباً إلا يعينه على نوائب الدهر. فما طرق أحد باب الدكتور راشد المبارك - أسكن الله روحه الجنة - إلا ونال حاجته، وعاد من حيث أتى معزراً مكرماً غير خائب أو محزون. إضافة إلى ذلك فهو يتألم لألم المظلومين والفقراء والبؤساء والمسحوقين والمنكوبين لحد الأرق الذي يقض مضجعه ويبرحه وجعا وألماً، ولا يرتاح له بال إلا بعد رفع الظلم والبؤس عنهم. أما سمعتم الدكتور راشد المبارك وهو يصدح «بصوت الأرض الإنساني المدوي قائلاً:

أنا نسيج الأنسى في صدر من ظلموا

أنا أنين الشجي في قلب من نكبوا

كذلك تؤرق الدكتور راشد وتقض مضاجعه قضايا أمته العربية والإسلامية، فيحترق كمدماً لما تعانيه من مشكلات، فلا تهدأ له نفس، ولا تنام له

د. يحيى بن محمد شيخ أبو الخير

عين إلا بعد أن تتجاوز أمته محتتها. فهو لا يقف من قضايا أمته، كما يفعل البعض، موقف المتفرج إذا ادلهمت الخطوب، بل يسرع بكل عزيمة واقتدار بالمشاركة الفاعلة في حل معاناتها بقلمه ومائه وجهده وبما حباه الله من حضور ووجاهة قل نظيرها.

إن هذه الصفات الشخصية الفريدة للدكتور راشد المبارك رحمه الله قد أكسبته فكراً وفلسفة علمية متفردة. ولعلي أعطي نفسي الحق هنا فأصف فلسفته وفق الأبعاد الثلاثة الآتية:

البعد الأول: فلسفة ذات بعد علمي عقلاني أخلاقي إصلاحية نخبوي، توظف العقل في تحليل فرصه للنظر والاستقراء، ولكنه مع ذلك لا ينزهه د. راشد - رحمه



إن فلسفة د.راشد - رحمه الله - وفكره العلمي الممنهج قد منحه القدرة الموضوعية الفائقة للفصل بين جموح النظرية وألق المنظور وجنوح النظر بنماذجه المختلفة، موظفاً عمق إيمانه بربه، وصلته المتينة بالكتاب والسنة، وفهمه الناضج لهما ولحدود الأطر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تعيشها أمته، وتركز إليها دونما غفلة عن تأثير مستجدات العصر، وتغير ظروف الحال في المكان والزمان على تلك الحدود.

إن فلسفة د.راشد المبارك - رحمه الله - وفكره قد ولد وترعرع في أكناف إنسانيته الفذة، ورهافة حسه ورفيع ذائقته، وقلبه النابض رافةً وحناناً وتعاطفاً واحتراماً للإنسان. ونتيجة لذلك اتحد منظوره د.راشد الفكري مع منظوره الإنساني ومع مثله ومبادئه العليا التي أفرزت فلسفته العلمية الأخلاقية العقلانية الإصلاحية النخبوية، ووجهتها الوجهة التي جعلت منه عالماً ومفكراً وفيلسوفاً متفرداً. ولهذا نجد أن د.راشد لم يحرم شعره من تجربته الإنسانية الفكرية والفلسفية فأسقطها على شعره بعد أن ألبسها ثوب الحكمة والروية لتصبح رمزا ومثلاً يستشهد به على أحداث الحياة المثلى من ضمير الإنسان اليقظ المحترق المجروح الفارق في حرقه دمع بلا سفر، وشوق يحيا بلا أمل، فيقول بصوت مدوٍ يرد له الدمع في مقتلته، ويبرئ جرح أمته الخفي القاتل :

وأحرقَ الدمع ما يبقى بلا سفر

وأقتلَ الجرح ما يخفى ويستتر

وأنبِل الشوق ما يحيا بلا أمل

ينثُ طَلا على الأكباد تنفطر

البعد الثاني: فلسفة علمية إبداعية تأسست على نقل العلم من مرحلة المعلومات إلى مرحلة المفاهيم. فالعلم عند د.راشد المبارك أسلوب حياة، ونمط تفكير، وفكر ووسيلة استنباط وقياس واستدلال واسترداد. لهذا نجده ينحو في فلسفته منحى التنظيريين الذين شغفوا

الله - العقل من الخطأ والزلل. وكان - رحمه الله - يؤرقه ويقض مضجعه إذا انتهكت حقوق الإنسان، وحجر على الرأي والرأي الآخر فكرياً، وصودر وفرض الفكر المخالف بقوة أسواط الجلادين. كما قادته فلسفته ومنظوره الفكري العلمي عن الحياة والكون إلى مقت واستهجان التقليد الأعمى، وعدم منح العقل فرصته لاستشكال الأحداث.

إن فلسفة د.راشد المبارك وفكره العلمي العقلاني الإصلاحي النخبوي جعله يمنح العقل منزلة سامقة بهية يقدمها أحياناً على الحس والتجريب، مقرباً بذلك



من المشتغلين بعلوم الإنسان وآدابها، التي يحترمها ويجلها كما صرح بذلك في أكثر من مناسبة وأكثر من مؤلف ومقال. وكان لهذه الفلسفة منظور يعمل بموجبه على الحدس والخيال في الحصول على المعرفة القائمة على النظر فيقول: «إن أسرار المادة تقع داخل أسوار لا يخترقها سوى أشعة الفكر، ويتعذر اجتيازها إلا بوثبات الخيال». فلذلك تجده يتألم من أنماط التعسف البشري، والتعامل المتوحش مع تلك الأسرار وطبيعة أسوارها وطرق اختراقها وسبر أغوار كينوناتها.

أو طائفة أو تيار أو فكر. فالأصل لديه سواسية البشر وإنسانية الإنسان.

وأخيراً إن هذه الفلسفة الإبداعية قد أملت على د.راشد المبارك -رحمه الله- إعجابه بالمتخصصين الأستمولوجيين المعروفين الذين يجولون بعلمهم من وإلى حدائق المعرفة والثقافة، كما جال وصال هو فيها منطلقاً لا يحده تخصص، ولا تيقه عن التأمل والنظر فكرة مسبقة أيديولوجية دوجماتية غير براجماتية مغللة في الطيف الرمادي الواقع بعيداً عن نظرية المعرفة المعاصرة الديناميكية الصانعة للعلم والثقافة والمعرفة.

البعد الثالث: فلسفة منهجية
منظورية التوجه، تمثلت في أبحاثه ومؤلفاته في آية الكم، وفي الاندماج المغزلي، وتأثير ذلك على مستويات الطاقة في الذرة والجزيء. كما تمثلت أبحاثه في الفكر والفلسفة والثقافة التي تعد جميعها بحق أطراً مرجعية يعتر الدارسون بمنهجيتها الصارمة السديدة، وجديتها في الطرح، وأصالة منشئها ومبتغاها ولغتها البلاغية الراقية.

ومن أولى جهودها العلمية التي وجهها فكره وفلسفته عن الطبيعة ومكوناتها: حساب الفرق بين قيمة التفاعل في حالة الذرة المفردة وقيمتها عندما تتحد مع ذرات أخرى، كما هو الحال في العناصر الانتقالية التي سعى د.راشد المبارك -رحمه الله- إلى حل استشكلها الذي كان مرده الكشف عن سبب الاختلاف. إن فكره وفلسفة د.راشد المبارك المنهجية الإبداعية قد أفرزت فزيكس نادراً من المؤلفات التي من أولها مؤلفه في «كيمياء الكم» الذي شاركه في تأليفه أ.د.معتصم خليل إبراهيم أستاذ الكيمياء بجامعة الملك سعود. وقد عكس

بالبحث في خواص المادة والعلاقة بين وحداتها اعتماداً على العقل والحدس والتأمل والحس والتجربة. ولذلك أدرك د.راشد المبارك أن التعليم لا بد أن تتغير أنماطه الفكرية غير المفاهيمية، وأساليبه التقليدية إلى فكر تعليمي تحويلي يشارك فيه الطالب مع مدرسه في صناعة فكره الذي يقرر نمط شخصيته المستقبلية التي يعول عليها في النهوض التنموي والحضاري والثقافي والفكري المواكب للمشهد العالمي القافز المتطور.

ولاشك أن فكره وفلسفة د.راشد -رحمه الله- تتجلى في إعلائه من شأن الفلسفة ويؤكد سموها، لكنه في الوقت نفسه يؤكد تهافت بعض المشتغلين بالفلسفة نتيجة لتبنيهم أمراً يتناقض مع سمو الفلسفة التي يشتغلون بها، وهو تلك النزعة التقريرية والثوقية في أطروحاتهم التي لا تتعدى كونها خواطر وانطباعات لا ترتقي إلى المستوى الوثوقي الذي يتبنونه. ومن أمثال هؤلاء الفلاسفة التقريريين الذين أشار إليهم في أكثر من مناسبة، وكتب عنهم وتحدث أفلاطون وأرسطو وديكار واسبينوزا وكانط وشوبنهاور على سبيل أمثال لا الحصر.

وتندد فلسفته المستتيرة وفكره العلمي المستقر بالتمذهب الفلسفي الذي جنح بالفلسفة عن حياديتها وموضوعيتها نتيجة للمبالغة في الوثوقية التي تضلل في رأيه مسار الفكر، وتضفي عليه دوجماتية تزور الوقائع، وتحول العقول البشرية إلى شهداء زور، أو إلى حالات يقرر العقل فيها قضية ما، ثم يأتي بما يناقضها.

وتبنى فكراً إنسانياً أخلاقياً عالمياً يعقت بناء عليه فلسفة الكراهية والعنصرية المقيتة القاتلة، ويندد بها ويدعو إلى ما سواها من المحبة وعدم الانحياز لجنس





الكون) التميز العلمي الذي يعد سمة لما يكتبه الدكتور راشد، وديدن مساره العلمي الفكري المرموق.

وقد نجح كاتب هذا المؤلف في رآب الصدع بين العلم المتخصص الدقيق الذي يهابه الناس، والثقافة العلمية العامة التي يعاني البنيان الفكري لأمتنا من نقص حاد فيها. فجاء الرأب في الكتاب مسدداً هذا النقص وشاملاً في إحاطته، وعميقاً في أسلوب عرضه ومحتواه، وكاشفاً للغوامض في أمور لا يمكن كشفها بمثل هذه الإحاطة والدقة التي وردت في الكتاب إلا من قبل قامة علمية كقامة الدكتور راشد المبارك رحمه الله.

وانتي اتفق مع ما ذكره د. المبارك -رحمة الله عليه- في كتابه (هذا الكون) من أن «مدارك البشر ومعارفهم هي مقربات الرؤية الكاشفة لأبعاد هذا الكون، وأن مجال الرؤية يتسع بهذه المقربات بقدر اتساع المعارف ونضج المدارك». وأعتقد أن اقتران الخيال بالفكر، والتذكر بالتصور، هو الزاد الحقيقي لمن أراد أن يستمتع بتجليات الكون المتوهجة، ودقائقه المتخصصة التي عرضت معانيها في هذا الكتاب

ومفاهيمها دونما إخلال بدقتها أو مساومة بصحتها. ولم يكن هذا الكتاب هو الوحيد الذي يحمل مدرسة د. راشد المبارك الفلسفية وفكره، وإنما هناك مؤلفات أخرى لا تقل جودة وإتقاناً عن كتاب (هذا الكون). ولا شك أن خلفية د. راشد المبارك الفلسفية المتعمقة، وفكره الاناضج، وعلمه الغزير، وشاعريته المتألقة ومشاعره الإنسانية الكريمة والوجدانية المرهفة قد أكسبت كتبه أنق العالم الأديب، وتأمل الفيلسوف الحالم المحلق. وقد تجلت هذه السمات في كتابه الموسوم (قراءة في دفاتر مهجورة)

هذا الكتاب فكر وفلسفة د. راشد المبارك الفيزيكيو رياضية وبخاصة في مجالي نظرية المعرفة التفاضلية التكاملية، والاندفاع الزاوي نظرياً وتطبيقياً.

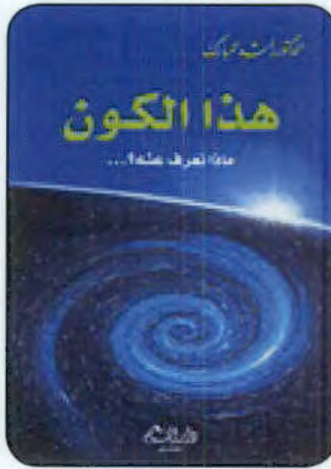
ويعتبر كتابه (هذا الكون: ماذا نعرف عنه؟) سفرًا علمياً رائعاً عرض فيه الدكتور راشد المبارك -رحمه الله- عدداً من قضايا علوم الطبيعة والكون والرياضيات إضافة إلى السياسة والدين وفق أسلوبه العلمي الدقيق، ولفته العربية الناضجة التي يفاخر بها كل اللغات، ويتصدى لمن ينتهكها أو يقلل من شأنها.

ويعد هذا الكتاب رحلة علمية جاذبة ممتعة مستقطبة في حقول عدة من نظرية المعرفة الكونية المعاصرة كفيزياء المجموعة الشمسية والخصائص الفلكية للنجوم والمجرات والثقوب السوداء وفي أبستمولوجية نظريتي النسبية الخاصة والعامة، وآلية الكم وفلسفة هذه النظريات وكيوناتها المدهشة.

وتضمن الكتاب مناقشة فكرية متعمقة لأثر التقدم التقني على المسار العلمي المعاصر من ناحية وتأثير القوانين الطبيعية على الفكر الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي

في الغرب، وتأرجح المقولات العلمية بين التغير والثبات من ناحية أخرى. لهذا كان الكتاب ولا زال مرجعاً للقاصي والداني في علوم الكون، ومدرسة تعكس منظوراً فريداً في التأليف العربي، وإضافة رائعة للمكتبة العربية في هذا المجال.

ولاشك أن قلم الدكتور راشد المبارك البليغ، وتخصصه العلمي الدقيق في كيمياء الكم، وميكانيكياتها المتنوعة، وخلفيته الرصينة الراسخة في أعماق علم الكون وفلسفته وثقافته الموسوعية: قد أعطى كتاب (هذا



الأحداث والانتقاء الموفق للفظة التي تسبح بقارئها بلغة علمية، وألفاظ مصطلحية ضمن أطراف الماضي والحاضر، متجاوزة سقطات الزمان، وعجائب المكان وأهواله نحو زمكنة مستقبلية تجديدية مشرقة مليئة بالأمل رغم الألم الذي يكتنفها.

فالشعر عند د. راشد المبارك رحمه الله جسر للأمل رغم مثبطات الأمل، وهول محضرات الألم واليأس لحاضر ما مضى، وماض ما حضر؛ من الظواهر والأحداث والحالات مؤملاً د. راشد أن لا يكون ما استقبل من الزمان وصروفه في شعره مثل ما استدبر من ماضي زمان أمته وحاضرها.

ويعد شعر د. المبارك غفر الله له نمطاً متفرداً من أنماط الوجد والألم والأمل وكل توافقات النفس البشرية وتعارضاتها ومقارباتها أو مفارقاتها. وقد عكس شعره زخماً من شذرات تخصصه الدقيق وفلسفة فكره المنبثقة من آلية الكم التي تصف سير الضوء من مصدره إلى مبتغاه في دقات غير متصلة الأطياف يطلق على كل وحدة منها كوانتا، أي دفقا متقطعاً غير متواصل المسير وغير مرتبط، فيقول:

يا لؤلؤ الحسن دقق الضوء رنقه

قبل المغيب انسكاب اللون في الشفق

ويا نضارة زهر ماج في مرج

وعودة الرفة الجذلي إلى الحديق

وقال في قصيدة أخرى:

يحاصر الشوق روحينا فيمزجها

حتى ليتحد المنظور والنظر

متأثراً مرة أخرى في حبكه لهذا البيت وفي غير

الكثير من شعره بمنهجية العلمية الاستقراء-استدلالية

الذي دعا فيه إلى حلف فضول جديد موظفا فيه رؤيته الفكرية وتحليله الفلسفي في أسباب خمود جذوة الفكر الإسلامي ومغالة الأمة في صناعة الكلام.

ومن مؤلفاته الحديثة الأخرى كتابه (فلسفة الكراهية: دعوة إلى المحبة)، وكتابه (نزار قباني بين احتباسين)، وكتابه (التطرف خبز عالمي)، وكتابه (شمخ الفلسفة وتهافت الفلاسفة) الذي فاز بجائزة وزارة الثقافة والإعلام السعودية في دورتها الأولى لأفضل كتاب للعام ٢٠١٢م. ويعد هذا الكتاب كغيره من مؤلفات د. راشد المبارك إضافة حقيقية للمكتبة العربية.

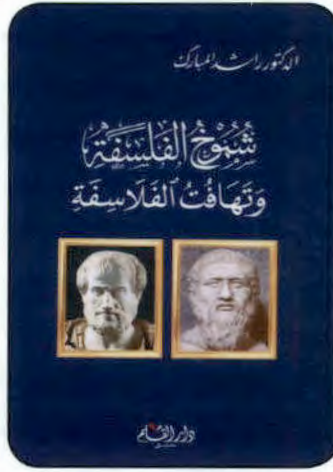
هذه المنجزات العلمية هي خير

شاهد على ما تحمله مؤلفات راشد المبارك -غفر الله له- من رؤية غنية وثرية بالتفكير العلمي المستنير الحر المستقل، والعمق الذي تحتاج إليه الثقافة العلمية في بلدنا العربية.

ولا ننسى أن نضمن قائمة عطاءات د. راشد المبارك ديوانه الموسوم (رسالة إلى ولادة) الذي تأثر في رأيه بفلسفة فكره ومنظوره عن الحياة والكون. ولا شك أن هذا

الديوان يعد سفراً لأعماق د. راشد المبارك يدغدغ فيه عواطف قرائه، ويسحرهم بلغة شعره الجياشة الفياضة، ويرحل بهم ليحط الرحال في مكان كشف الغطاء والغوامض عن شفرات رموز شعره.

إن شعر د. راشد صور تتحرك ضمن أطراف الشاهد المقيس من الحالات التي تبهر المتلقي وتدهشه، فتجعله يعيش تجربة حية تثير عواطفه ومكامن وجدانه، وتوقظ فيه استنعار الشعر وشاعرية الشاعر لينساق بعقله وعاطفته معاً وراء الأداء البارع في التصوير وشعرنة





إخواني: اسمحوا لي أن أختتم حديثي هذا بوتر من أبيات قصيدة نظمها في حفل سابق لتكريم د. راشد المبارك كان لأخي وصديقي المجلد د. حيدر الفدير دور في مراجعتها وتنقيحها أراها مناسبة لهذا المقام أهدبها من خلاله إلى أخي وشقيقي د. راشد المبارك رحمه الله، عرفانا مني له بالفضل والإحسان والجميل، فأقول:

أسكنت قلب محبيكم بلا عنت

والشاهد الصحب والأخبار والسير

إذا الخطوب ادلهمت في مرابعنا

أسرعت كاليث للعلياء تنتصر

العلم والفكر والأبحاث شاهدة

وما تقول النهى لا ما زور البشر

تجيد حل قضايانا بلا سام

أنت الهصور لصد الحق تبتدر

أعطيت أجزلت ما أثنت عزائمكم

صعاب درب ولا الأشواك تنتشر

إخواني: إن حديثي هذه الليلة هو شذرات من نظرات في فكر وفلسفة د. راشد المبارك رحمه الله، وما حديثي إلا غيض من فيض، وأن ما سطرته عنه في هذه الصفحات ما هو إلا جهد المقل، وعذري فيه أن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

أملي أن أكون قد وفقت في هذه القراءة لأعماق د. راشد المبارك رحمه الله، الذي مذكرفته من ثلاثين عاما وهو لم تغيره السنون، وتقلبات الزمان، ومباهج السمعة التي يحتلها محليا وإقليميا وعالميا.

رحم الله د. راشد المبارك رحمة واسعة، وتشفاه بفضلته وكرمه، وجعل قبره روضة من رياض الجنة، وثبته بالقول الثابت، وأنزله في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، وإنا لله وإنا إليه راجعون ■

في النظر والتجريب، والاستنباط والتعميم، التي تجانس بين النظر كمشاهدة والمنظور كرؤية لسبر مكنونات الجسيمات النووية في آلية الكم أو الكوانتم التي تمثل حقل تخصص د. المبارك الدقيق رحمه الله.

وبعد كل هذا وذاك فشعر د. راشد المبارك غني بقاموس بيئي ثري من الألفاظ الرقاقة، والعبارات الدافقة الدفئة المعبرة. فنلمس في شعره قاموسا يحوي ألفاظا علمية بحتة من مثل الإشعاع، والسحب والغمام، والشهب والبروق، والصحراء بحرهما وقرها، وعبارات من مثل «ألوان من الطيف أشرقت»، و«السرب قد ضيع السرب»، و«الركب قد ضيع الركب»، و«سكب اللحن ينهمر»، و«وعطش النهر»، و«وحنين الضوء أظلمات الظمى»، و«ضجيج الصمت»، و«دقق الضوء». وهذه الألفاظ والعبارات التي شكلت فسيخساء شعر د. راشد المبارك رحمه الله لم تكن لتتشكل لولا عبقرية شاعرنا، وقدراته الفكرية الناضجة، وفلسفته الواعية، ووجدانه الصادق، وحسه المرهف، ولغته الرصينة، وثقافته الموسوعية، وفكره العلمي الممنهج فلسفيا ومعرفيا.

أعزائي: لم يحرم الدكتور راشد المبارك رواد الثقافة السيارة من كتاباته عن قضايا أمته ووطنه، مشاركا إياهم فكره وفلسفته، ومهديا قراءه أنفس أكائيل عطائه. فما كتبه في الصحف المحلية والإقليمية وبعض صحف العالم ما هي إلا دعوة للارتقاء بأتمته والإفصاح عما يفرحه أو يعزّنه فيها، وعرض لوجهات نظره الجريئة في قضاياها الشائكة والشائكة، وتعبير عن رؤياه لحل أزمتها. إن ما كتبه الدكتور المبارك في الصحف السيارة هي، في رأيي، حافز للأمة على منافسة العالم المتقدم في مجال العلم والفكر والثقافة والابتكار والإبداع والتأصيل، وتنمية الإنسان وترسيخ مفاهيمه الصحيحة عن الحياة والكون، ومأسسة سبل تطوير الموارد البشرية، وتعزيز آفاق التفكير السليم، ونشر أبعاد الثقافة العلمية الناضجة.